النبي الهادي..عرف قدرك فهل أنت كذلك ؟!

ماجد رسلان

حين جاء الصحابي (وابصةُ بن مَعْبد) يَسأل النبي ﷺ عن البر والإثم ، ابتدره الرسول الكريم بسؤال استفهامي عن سؤاله قبل أن يطرحه عليه ، وهذا من فُيوض نبوته وخصائص معجزاته الكثيرة الطيبة ، المؤيدة بالوحي الإلهي . فَلْنَلقِ السمع لهذه المحاورة الكريمة :

عن وابصة بن مَعبد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(**يا وابصةُ ! جئتَ تسأل عن البر والإثم ؟**) قلت : نعم . قال : فجمع أصابعه ، فضرب صدره ، وقال : (**استفتِ نفسك ، استفتِ قلبك**) ثلاثاً

(**البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردَّد في الصدر ، وإن أفتاك الناس**) رواه أحمد والدارمي .

وصح عن ابن مسعود أنه قال : الإثم حَزّاز القلوب ، أي ما

يؤثر فيها ضيقاً وحَرَجاً ونَفوراً وكراهة . وقال أبو الدرداء : الخير في طمأنينة ، والشر في ريبة .

وتحدث ابن رجب الحنبلي في كتابه " جامع العلوم والحكم " عن البر والإثم ، فقال ما ملخصه : البرُّ يُطلق باعتبارين :

الأول : معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، ورُبما خُصَّ بالإحسان إلى الوالدين ، فيقال : برُ الوالدين . وفي حديث بَهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله من أبُرُّ ؟ قال : أمُّكَ . قال : ثم مَنْ ؟ قال : أبوك . قال : ثم من ؟ قال : الأقرب فالأقرب) .

وإذا قُرن البر بالتقوى كما في قوله تعالى : { ... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ... } [المائدة : ٢] فقد يكون المراد بالبر معاملة الخلق بالإحسان ، وبالتقوى معاملة الحق بفعل طاعته واجتناب محرماته . وقد يكون المراد بالبر فعل الواجبات ، وبالتقوى اجتناب المحرمات .

الثاني : فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة كقوله تعالى : { ... **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ**

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ } [البقرة : ١٧٧]

وقد يُراد بالإثم المعاصي ، وبالعدوان ظلم الخلق ، وقد يُراد بالإثم ، ما هو محرم في نفسه كالزنا والسرقة وشرب الخمر .. وبالعدوان ظلم الخلق .. وهذا كله يدل على أن الله فَطَر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله ، وركَّز في الطباع محبة ذلك والنفورَ عن ضده » انتهى بتصرف ص ٢٧٣ .

أجل! كما قال النبي ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** »

بعد هذا التلخيص لموضوع البر والإثم نقول :

إنه ينبغي أن نقف ملياً عند العبارة الأخيرة من جواب النبي الكريم : « **استفت نفسك** ... » متأملين ، مستبصرين فاقهين ، باحثين مدققين .. فالنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ولا يُلقي الكلام جُزافاً على عواهنه ، إنما هو وحي يوحى ، فهذه الكلمة

العظيمة الجليلة .. لم يَقُلْها إلا لرجل من أولي العزم ، تربى على مائدة النبوة ، فَهِمَ أبعادها ومراميها ، وفَقُهَ مسؤولياتها وتكاليفها ، وأدرك عظمة توجيهها . فموضوع الفُتيا والاستفتاء يتعلق بالدِّين والدنيا على حدٍ سواء ، أي يتعلق بالحرام والحلال ، يتعلق بالطاعات المفروضة والمسنونة ، يتعلق بالمندوب والمباح ، يتعلق بالسر والعلن .. إنه يتعلق أولاً : بالعلم وطلبه والبحث عنه ، وفهمه من أدلته ، وبالمعرفة والنظر بأسبابها واستقصاء أبحاثها من مِظانها ، لأنها تُنير الطريق وتُيسِّره ، وهذه أمور مرتبطة بالعقل والفكر والإدراك .. ويتعلق ثانياً : بالتربية والتنشئة والإعداد ، والآداب والأخلاق ، وهي مرتبطة بالقلب وتوجيهه والعناية بأسباب صلاحه وتقواه ، وبالنفس وتزكيتها والارتقاء بمشاعرها والأخذ بأسباب تهذيبها ، وبالروح والسمو بأحاسيسها والتحليق بها ومعها ، وبكلمة أخرى إن هذا كله يتعلق بالروح والجسد ، والفكر والعقل والقلب والنفس ، أو بكلمة جامعة : يتعلق بكامل الإنسان ظاهراً وباطناً . الإنسان الرباني الذي يريده الإسلام أن يكون متوحداً أصيلاً ، متفرداً متميزاً .. كأنه مَلَكٌ يتهادى على الأرض بالحق والخير والعدل والرحمة والمحبة والحرية والنُصرة والإخاء

والطهر والطهارة والنقاء ..

فانظر إلى عظمة النبوة ومعجزتها البيانية البلاغية ، ومعجزتها في هدايتها وإرشادها ، ومعجزتها في تربيتها وتسديد توجيهها لتكون في خدمة الحق من أخصر طريق مع أهله الذين آمنوا به وكانوا معه .

إن الرسول الكريم ﷺ حين أجاب ذاك الصحابي وألهمه رُشده ، ووجهه الوِجهة الجامعة الإيمانية الصائبة لم يكن قصده خاصاً بجيل الصحب الكرام وحده ، بل كان قصده عاماً - فيما أعتقد وأجزم به - كُلَّ مسلم مؤمن رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً . لأنه ﷺ نبي لجميع البشرية في جميع أجيالها وأزمانها وأمكنتها من لدن بعثته الشريفة حتى قيام الساعة .

إذن ابنَ الإسلام أينما كنت وأنّى عشت وحيثما وُجدت ، أنت مَعْنيٌ بكلام النبوة وتوجيهه وإرشاده ...

✧ فهل أنت كذلك في معركة الدّين والحياة على الثُّغرة التي وضعك فيها القدر ، آخذ الأهبة والاستعداد وقد تسلح عقلك بالعلم والمعرفة ، وهُذّبت نَفسُك بالفضائل الخيّرة ، ونُشّيء قلبك على الأخلاق النبيلة ، وصُقلت روحك بالعبادات الطاهرة

المُطهرة التي تصلها ببارئها ؟. إنك بحاجة إلى هذا كله لأنك في أتون هذه المعركة الطاحنة التي كثيراً ما يختلط فيها الحابل بالنابل ، وتتشابك أمور مختلفة وتتعقد قضايا متباينة ، وتتقدم مصالح وتتأخر واجبات ، وتتفجر مشكلات ، وتختل موازين ، وتختفي قيم ويستحكم شر ، ويتوارى خير ، ويعلو لئيم ويتعثر كريم ، ويتواقح حرام ويتوانى حلال .. إنك بحاجة إلى نور يهدي ، وحق يدفع ، وعزيمة لا تلين ، وصبر لا يستكين ..

✧ وهل هيأت نفسك التي أرخصتها لله لاقتحام أهوال هذه المعركة على كل جبهاتها بكافة أسلحتها ، وكامل أسبابها زماناً ومكاناً وأحداثاً ، ونفساً

وجَناناً ، وروحاً وجسداً وعقلاً ، وذلك بورودك مدرسة النبوة لتنظيف قلب من أدران المخالفات العَقَدية ولوثات المعاصي الشيطانية المُرْدية ، وتطهير عقل من تخبطات حَيْراتِ الهوى ، وانحراف الأفكار واستبداد الآراء ، وتزكية نَفْسٍ من دَنَس عُجب أو خَبَث استكبار يُطوَّح صاحبه في مهاوي الرَّدى ... ؟!

فالرسول المعلم ، والوالد المربي كما ربّى سَميّك في الماضي ، يُوجِّهك ويربيك أنت في الحاضر ، فلا تتلكأ عن مائدته الربانية النورانية ، وسيبقى ﷺ بتوجيهه قائماً لمن بعدك

من الأجيال اللاحقة لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يحور ولا يزول لأن سنده الوحي الإلهي العتيد الكريم في كتاب ربه وسنته الشريفة .

إن الرسول العظيم يضع بين يديك مفتاحين للحقيقة التي ينبغي أن تعيشها بكل أبعادها السلوكية الظاهرة ، وبكل أبعادها الروحية الباطنة ، وبكل أبعادها التربوية الأخلاقية الظاهرة والباطنة معاً على حد سواء ! .

الأول : أن تأخذ مكانك على موائد العلم عند أهل الفضل والدين والمعرفة ، والاستقامة والتقوى والإخلاص والورع ، تزاحمهم بالركب وأنت تنهل منهم وتسألهم وتحاورهم في كل ما يتعلق بأمور دينك ودنياك في معاشك ومعادك ، بكل صغيرة وكبيرة ، فالمؤمن كَيس فطِن ، له لسان سؤول وقلب عقول ونفس مطمئنة راضية مرضية ..

الثاني : أن تُسائل وتحاور قلبك العامر بتحصيل العلم وفقهه ، والمعرفة وروحها ، والورع وآدابه ، كما تسائل وتحاور نفسك التي رُبيت على مراقبة مولاها الكبير المتعال ، وعاشت في كنف الإيمان وشفافيته ، وارتوت من معين الإخلاص وسلسبيله العذب ، وأن تجعل هذا المفتاح قيّماً على

الأول بكل ما فيه من طمأنينة الثقة وأصالة التوجه ، وسلامة التعليم ، وحسن التوجيه من أساتذة وعلماء كرام ، فمهما بلغت معرفة الناس بك وبشؤونك وحاجاتك ، فأنت بباطن نفسك أدرى ، وبحقيقة ما يعتلج في قلبك أعرف ، وبمدارك ما يدور في عقلك أوثق : { **بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** } [القيامة : ١٤] لأن المفتاح الأول يتعلق بالأمور التعليمية والقضايا النظرية البحتة ، والثاني يتعلق بالأمور التطبيقية والتنفيذية لها ، ومن هنا يأتي دور التجسيد النزيه والتنفيذ الدقيق ، الذي إن امتلك صاحبه ناصية الورع والتقوى فهو ليس يُجانب الأغلوطات والشبهات فحسب « **دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يَريبك** » بل إنه يحيد عن أدنى من ذلك وأقل لقوله ﷺ : « **لا يَبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس** » الترمذي وابن ماجة

✧ وهل هيأت نفسك أن تكون أهلاً لثقة الرسول الغالية بك فتكون رَجل المهمات والملمات .. مصداقاً لقول الله العظيم : { ... **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ... } [الأحزاب : ٢٣].

✧ وهل هيأت نفسك أن تكون الميزان الرباني الدقيق ذا الحساسية العالية .. لك ولغيرك ، تُوزن به أدق الأمور

وأصغرها : { **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه** } [الزلزلة : ٧] .

✧ وهل هيأت نفسك أن تكون " بوصلة " الحق تَهدي إليه ، وتدل عليه : { **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** } [النحل : ١٢٨] .

✧ وهل هيأت كيانك كله ليكون بمستوى إيمان إسلامك ، وإسلام إيمانك الذي يريده منك رسولك الكريم ، الذي أرشدك وهداك ، ورعاك لتتبوأ مكان صدارة أهل الإيمان بحسن ظنه بك .. وتتبوأ مكان صدارة المسؤولية في حمل الأمانة من بعده بجدارة رجال الإيمان وصدقهم وعزيمتهم .. متحملاً تبعاتها بجسارة وعنفوان ، وأنت الأمين المؤتمن من بعده على دين الله ، بعد أن غدوت مؤتمناً على نفسك وقلبك وروحك وجوارحك ، لتكون خير خلف لخير سلف في زمن عزَّ فيه الانتساب الحقيقي لهذا الدين ، وعزَّ فيه تنفيذ تعاليم شرعته على منهاج النبوة المبارك ، وعزَّ فيه الانتماء لنصرة الحق المبين ولو كان على النفس والأهل والمال والولد ؟! .

✧ وهل هيأت نفسك أن تقوم مقام الصدِّيق أو مقام الفاروق ، أو مقام عثمان ، أو مقام علي أو مقام سعد أو مقام

أبي عبيدة ، أو مقام معاذ وصهيب وبلال .. في زمن الغربة والاغتراب ؟! .

✧ هل أنت كذلك أيها الأخ الحبيب عند من عرف قدرك ، وأعلى منزلتك، ورفع ذكرك ، وقال مبشراً : « **وأنا فرطكم على الحوض ، ومُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة** » ؟! .